هل تعود مصر إلى سياسة العزلة

د. عبد العظيم رمضان

ربما كان خير ما يصور الخلاف الحاد بين أبناء الأمة العربية اليوم، بعد مبادرة الرئيس السادات السلامية، أنه خلال بين الذين يصلون نار المعركة والذين يصطلون بنارها. أو هو خلاف بين الذين يشقون بالمعركة وتتدهور بها اقتصادياتهم وتتزايد اختناقاتهم، وبين الذين ينعمون بالمعركة وتنضج بها ثرواتهم وتتضخم حساباتهم!. أو هو خلاف بين الذين يحاربون بالعتاد والسلاح والمهج والأرواح، وبين الذين يحاربون بالكلمات البليغة والخطب الرنانة والشعارات.

وإلا كيف نفسر هذه النقمة على زيارة تستهدف تحريك عجلة السلام فى إطار مبادئ وأهداف النضال العربى الأساسية المتفق عليها، كأن الاتصالات المباشرة مع الأعداء حدث فريد لم يشهد له تاريخ العلاقات الدولية مثيلاً، أو لم يشهده تاريخ المنظمة العربية وتاريخ نضالها ضد أعتى ألوان الاستعمار؟. وكيف نفسر إدانة حلف طرابلس المنعقد فى 5 ديسمبر الحالى لهذه الزيارة، واعتبارها "خيانة عظمى لتضحيات ونضال الشعب المصرى وقواته المسلحة ونضال وتضحيات ومبادئ الأمة العربية"، ثم اتخاذ قرارات بالعمل على إسقاط نتائج هذه الزيارة والمباحثات التى دارت فيها والإجراءات التالية لها، وتجميد العلاقات مع الحكومة المصرية، وعدم المشاركة فى اجتماعات الجامعة العربية ومنظماتها التى تعقد فى مصر وإجراء الاتصالات مع دول الجامعة لدراسة موضوع مقرها والمنظمات التابعة لها، وموضوع عضوية النظام المصرى فيها؟. وإذا كانت كل هذه النقمة لمجرد تغيير فى التكتيك على طريق السلام، فما بال الأمر لو كان التغيير فى الاستراتيجية؟.

إن الخطأ الفادح الذى يقع فيه قادة حلف طرابلس، ومن قبل وقع فيه الاتحاد السوفيتى، هو الانطلاق من فرضية مضللة، هى فصل النظام المصرى الذى يرأسه السادات عن الشعب المصرى، واعتبارهما شيئين مختلفين. ثم بناء الأحلام والآمال على ثورة ينقض بها الشعب المصرى على النظام، وهو خطأ سبق لى أن حذرت منه الاتحاد السوفيتى أولاً بكل ما أملك من صداقة واحترام لإنجازاته فى مصر من جهة، كما حذرت منه الأنظمة العربية التقدمية الأخرى بكل ما يربطنى بها من روابط فكرية

وعواطف قومية – وذلك من موقع معايشتى اليومية للجماهير المصرية وإحساسى الدائم ينبضها.

بل أننى سارعت قبيل انعقاد مؤتمر طرابلس إلى النصح لدول الـرفض، فـى مقالى بجريدة الجمهورية يوم 26 نوفمبر 1977، "بالنزول إلى الشارع المصرى لتتحقق من ردود فعل زيارة السادات لإسرائيل، ولتعلم أن رجل الشارع المصرى، وهو يـرى مشاكله الاقتصادية لا تلقى العناية من أشقائه العرب الأثرياء، لا يستطيع أن يقف موف العداء من زيارة تستهدف دفع عجلة السلام". ولو أن دول الرفض تحققت من مشـاعر الرأى العام المصرى إزاء الزيارة قبل اتخاذ قراراتها، لما وقعت فى خطأ الفصل بـين النظام المصرى والشعب المصرى. بل لما وقعت فى هذا المأزق الحقيقى الذى أصبحت فيه، لأنه إذا كان من الثابت أن غالبية الشعب المصرى الساحقة تؤيـد السـادات فـى مبادرته السلامية، فإن قرارات حلف طرابلس بتوجيه تهمة "الخيانة العظمى" إلى الرئيس السادات قد أصبحت تنسحب، من حيث لا تريد دول الرفض، إلى الشـعب المصـرى نفسه.

وهذا هو سبب ردود الفعل الغاضبة الحالية فى الشعب المصرى إزاء قـرارات مؤتمر طرابلس. لقد نسفت هذه القرارات من رصيد الوعى القومى العربى فى مصـر، ما ظل المخلصون من رواد القومية العربية فى المشرق منذ مطلـع القـرن العشـرين يبنونه لكى يضعوا مصر على طريق العروبة وعلى طريق تحمل مسئولياتها التاريخية فى خدمة أهداف الأمة العربية. لقد عادت أعلام "المصرية"- للأسف الشديد- ترفـرف من جديد فى أيدى الجماهير المصرية، لأول مرة منذ ربع قرن. وهذه الأعـلام هـى الثمرة الحقيقية الوحيدة لمؤتمر طرابلس ومحاولة عزل مصر.

لقد نكأ هذا المؤتمر بقراراته، وتهجم قياداته على مصر، جروحاً ظل يتحملهـا المصريون طويلاً بصبرهم المعهود، بعد اختلال الميزان الاقتصادى لصـالح الأشـقاء العرب ولغير صالح مصر. فلقد صبر المصريون على استباحة القاهرة والإسـكندرية والمدن المصرية للأشقاء العرب الأثرياء بإمكانياتهم المادية يشترون بها كل شئ، مـن رغيف الخبز إلى الشقق الفاخرة إلى المتعة الغالية، وصبروا علـى تزايـد المـواخير وصالات الرقص وكازينوهات القمار فى شارع الهرم وغيرها، التى تبنيهـا الأمـوال العربية وتعمرها. وصبروا على التفرقة شبه العنصرية بينهم وبين غيرهم مـن ابنـاء

الشعوب الأخرى، العربية والأجنبية، فى المعاملة المالية فى بعض البلاد العربية التى يساهم فيها المصريون بدور كبير فى حقل البناء والتعمير. وصبروا على الأموال العربية التى تصرف فى غير صالح الاقتصاد المصرى فى ظل الانفتاح بدلاً من أن تتجه إلى مشروعات التنمية والبناء. وصبروا على دماء الضحايا من الأبناء والأخوة والآباء التى سفكت فى ميادين القتال دفاعاً عن الشرف العربى والتراب الوطنى على طوال أربعة حروب. ولكن صبرهم نفد إزاء حملات التشكيك المستمرة فى النوايا وفى البذل المصرى والعطاء، ونفذ صبرهم حين رأوا تهمة الخيانة العظمى توجه لرئيسهم لمجرد أنه يخطو خطوة جريئة لم تسبق نحو السلام ومن أجل تفادى حرب خامسة لا يعلم نتائجها إلا الله.

وقد نفذ صبر المصريين حين رأوا أن الرافضين لا يقدمون بديلاً للسلام سوى استمرار حالة اللا سلم واللا حرب التى تثل بالضرورة، بكل آثارها ونتائجها، على حياة رجل الشارع المصرى. وأنهم لا هم لهم ولا هدف إلا تدمير كل ما يمكن أن تفرزه زيارة الرئيس السادات السلامية من آثار إيجابية فى خدمة أهداف النضال العربى، أو ما عبروا عنه فى قرارات مؤتمر طرابلس "بالعمل على إسقاط نتائج زيارة السادات للكيان الصهيونى ومباحثاته مع قادة العدو الصهيونى، والإجراءات التالية لها بما فى ذلك اجتماع القاهرة".

إن الذين يعبثون بوحدة النضال العربى تحت وهم انفصال النظام المصرى عن الشعب المصرى، ويرتكبون خطأ مدمراً. وهم ينسون أن فكرة القومية العربية حديثة فى مصر، حيث كانت الرابطة الإسلامية هى السائدة بين صفوف الشعب المصرى. وقد كانت جهود رواد القومية العربية المخلصين متجهة على الدوام إلى شد مصر إلى العروبة ودفعها إلى تحمل مسئولياتها التاريخية والتصدى لزعامة الأمة العربية. فقد كتبت جريدة "البلاد" العراقية فى بغداد يوم 19 أبريل 1936 تقول: "لقد زودت الطبيعة مصر بكل الصفات والمزايا التى تحتم عليها أن تقوم بواجب الزعامة والقيادة فى إنهاض القومية العربية. فإلى جانب موقعها، فإنها تكون أكبر كتلة من الكتل التى انقسم إليها العالم العربى بحكم السياسة والظروف، وهذه الكتلة قد أخذت حظاً أوفر من غيرها من الحضارة العالمية الحديثة، وأصبحت أهم مركز من مراكز الثقافة فى البلاد العربية،

وهى أغنى هذه البلاد بأجمعها، كما أنها أقدمها فى تشكيلات الدولة العصرية وأقواها فى الآداب، وأرقاها في الفصاحة".

وقد كان هذا الطرح من جانب جريدة "البلاد" العراقية لعروبة مصـر ودورهـا الطبيعى فى قيادة نضال الأمة العربية – وهو الطرح الذى كان يطرحه رواد القوميـة العربية فى المشرق جميعهم- هو ما أقنع المصريين بعروبتهم، ودفعهم إلى اعتناق فكرة القومية العربية. وكان ثمرته تصدى مصر لمسئوليات قيادة النضال العربـى، بإنشـاء جامعة الدول العربية أولاً، واشتراك مصر فى حرب فلسطين عام 1948 ثانياً، ثم قيادة مصر فى حرب فلسطين عام 1948 ثانياً، ثم قيادة مصر لحركة القومية العربيـة فـى عهد عبد الناصر ثالثاً، وخوض ثلاثة حروب أخرى فى خدمة أهداف نضـال العربيـة رابعاً، والمساهمة بنصيب أساسى فى حصول شعوب الأمة العربيـة علـى اسـتقلالها وحريتها من براثن الاستعمار خامساً.

لقد كان الاحترام لمصر ولشعب مصر من جانب البلاد العربية هـو العنصـر الرئيسى فى إقناع الجماهير المصرية بعروبتها، حتى سبقت شعوب الأمة العربية فـى مجال البذل والعطاء والفداء، ولكن هذه الجماهير الآن تـرى "التحقيـر" يحـل محـل "الاحترام" والشك يحل محل الثقة، والتبعة تحل محل القيادة، فيراد لشـعب مصـر أن يتلقى الأوامر بالتحرك أو الجمود، بالحرب أو السلام، أو البقاء فى حالة الـلا حـرب واللا سلم، ثم يتلقى العقاب الفورى بتجميد العلاقات السياسية والدبلوماسية مع حكومته، والتهديد بقطع المعونات الاقتصادية عنه لتجويعه كلما تحرك نحو السلام دون استئذان!. فلا عجب إذا تملك الشعب المصرى شعور الإحباط، وأن أخذت مشاعر الارتداد إلـى "القومية المصرية" و"سياسة العزلة" تجتاح نفوس الكثيرين، وينحسر تيار القومية العربية وئيداً عن أكبر قوة ضاربة فى المنطقة العربية.

أننى مازلت أطرح هذا السؤال على دول الرفض: هل ترى قيادات هذه الـدول فى معالجتها لمبادرة السادات السلامية، وإصرارها على عزل مصر مع إسرائيل فـي جبهة واحدة رغم كل ما يعلنه السادات، أى فائدة ترجى لخدمة أهـداف نضـال أمتنـا العربية؟. وإذا كان الشعب المصرى يؤيد بصورة حاسمة لا تقبل الشك مبادرة السادات، فهل لا تزال هذه القيادات مصرة على دمغ هذه المبادرة واعتبارهـا "خيانـة عظمـى لتضحيات ونضال الشعب العربى فى مصر"؟. وإذا كان السادات لا يفتأ يعلـن تمسـكه

بالحل الشامل، فهل ترى دول الرفض في دفع مصر إلى الانسحاب من جبهة النضـال العربية، وفى تشكيل جبهة معادية لمصر، عاملاً مساعداً فى تحرير الأرض العربيـة؟ وهل ترى أى أمل فى استرداد الجولان والضفة الغربية وقطاع غزة والقدس بسهولة مع عزل مصر؟. وإذا كان الاتحاد السوفيتى نفسه يصر على بقاء إسرائيل كدولة معتـرف بها فى المجتمع الدولى، فعل تتوقع منه أن يساعد بالعتاد والسلاح على تصفيتها وإلقائها فى البحر.

إننا فى دول حلف طرابلس تماماً فى أنه "إذا كانت الأمة كبيرة بمصـر، فـإن مصر لا تكبر إلا بالأمة العربية، وهى تصغر بدونها". ولكن طيف يناقض المؤتمر نفسه ويعمل على تصغير مصر وعزلها، ويعتقد أنه بذلك يعمل على تقوية الأمـة العربيـة ودعم كفاحها ؟.

www.anwarsadat.org